اللورد لستر

LORD LISTER

نشرنا ترجمة اللورد لستر ووصف اعماله الجراحية في المجلد الحادي والعشرين من المقتطف . وقد رأينا ان نعيد الآن ما نشرناهُ هناك ثم نضيف اليهِ في العدد القادم رأي جراح شهير وعالم كبير وهو السير وليم وطسن تشاين استاذ علم الجراحة في مدرسة الملك

ان من العلماء الذين نفعوا نوع الانسان نفعاً لو قُدِّرت لهُ قيمة مالية لوازنت الجبال ذهباً نفعاً يشترك فيهِ اهل المشارق والمغارب على اختلاف درجاتهم ومراتبهم . نفعاً قلَّل آفات تشوِّهُ الاجساد وخفف آلاماً تفتت الاكباد السر جوزف لستر الجراح الانكليزي الشهير صاحب هذه الترجمة . فمن طالع خطبتهُ النفيسة التي ترجمناها ونشرناها في الاجزاء الثلاثة الماضية وقرأ ما نشرناهُ منذ عامين عن عجائب الجراحة رأى اننا لم نبالغ في وصف النفع العميم الذي نفع بهِ نوع الانسان باكتشافهِ اسباب ما يحل بالجروح من الفساد وطرق تلافيها

ولد في قرية بضواحي لندن سنة ١٨٢٧ وابوهُ عالم محقق من اعضاء الجمعية العلمية الملكية اشتهر باصلاح الميكروسكوب حتى لا يحل الالوان ولذلك وضع العلم مع الذين ان لم يكن وقد ورث الميل اليهِ وراثة . ودرس في مدرسة لندن الجامعة فاجيز لهُ سنة ١٨٤٧ وجعل يدرس الطب والَّف رسالة في انسجة الجلد العضلية قبل ان يتم درسهُ . وعيِّن لتدريس علم الجراحة في مدرسة ادنبرج الجامعة وكتب في كثير من المواضيع الطبية كتابة تدلُّ على علم راسخ وبحث دقيق فذاع اسمهُ وعُرف فضلهُ فعُيِّن استاذاً للجراحة في مدرسة غلاسكو الجامعة وانتبه حينئذٍ الى كثرة الوفيات من الذين تعمل فيهم العمليات الجراحية في المستشفيات فارشدتهُ الحقائق العلمية التي عرفها بالدرس والبحث الى معرفة سبب الفساد الذي يصيب الجروح والى السبيل الذي يتلافى ذلك بهِ

والمشتغلون بالعلوم لا ينبهرون بكل بارق ولا ينقادون لكل رأي فطير ولاسيما اذا كانوا قد الفوا بعض الآراء العلمية ودافعوا عنها فاحتدمت نار الجدال بينهم وبينهُ . وهو نفسهُ لم يتقن الاسلوب الذي اشار بهِ دفعةً واحدةً بل تدرَّج الى اتقانهِ تدريجاً وكان المناظرة والمجادلة شدتا همتهُ وشحذتا عزيمتهُ فواصل البحث والتنقيب والتمحيص والتحقيق الى ان بلغ الغاية التي تمناها

وانتقل من مدرسة غلاسكو الى مدرسة ايدنبرج ومنها الى مدرسة لندن استاذاً للجراحة وبقي في هذا المنصب الاخير الى عهد قريب

وفي اواسط هذا العام (١٨٩٦) نشرت جريدة نائشر العلمية ترجمتهُ وكلفت الاستاذ تلمس الالماني كتابة القسم العلمي منها فكتب يقول

لقد أُوليت الشرف لاني اختُرت لوصف الشهرة العلمية التي حازها السر جوزف لستر فالبي الطلب بزيد السرور لاني عرفت الرجل لا لمجرَّد شهرتهِ العلمية بل لانهُ صديق مخلص لي . وانا مثل غيري من مريديهِ الجرَّاحين الالمانيين ذهبتُ الى واضع علم الجراحة الحديث في مستشفى لندن وهناك عرضت ولائي على موطىء قدميهِ وقلبي طافح بالشكر لهُ . ولقد أتى منذ سنين كثيرة الى مدينة لبيسك ولا انسى ابد الدهر الوليمة التي اولمناها لهُ ولا الاحتفال الذي احتفلناهُ بهِ اساتذةً وتلامذةً كباراً وصغاراً لان المانيا عرفت فضلهُ قبل انكلترا واعترف الالمانيون بهِ قبل ابناء وطنهِ . فانهُ نبيٌّ في عصرهِ منَّ للناس سنَّة جديدة لشفاء الجروح وليس لنبي كرامة في وطنهِ ولا سيما في بداءة نبوَّتهِ

والعمل الخالد الذي عملهُ وهو معالجة الجروح على اسلوب يمنع تطرُّق الفساد اليها اعظم عمل تمَّ في صناعة الجراحة حتى الآن . ومن المسلَّم بهِ ان الجراحة تقدمت تقدُّماً عظيماً بعد اكتشاف الكلوروفوم والايثر سنة ١٨٤٦ و١٨٤٧ ولكنها بقيت محتاجة الى امر آخر وهو ان تنجح عملياتها نجاحاً اكيداً . فان الجراحين ضاقوا ذرعاً بجراثيم الفساد التي كانت تخطف القليل من ايديهم وتوردهُ حتفهُ وهم وقوف مغلولو الايدي ينظرون ولا يستطيعون عملاً . ولو استطاعوا ان يمنعوا هذا العدو الالد عن دخول الجروح ويجعلوها تلتئم من غير التهاب ولا صديد لسارت الجراحة في خطة جديدة وعدَت عدواً حثيثاً نحو الكمال . فجاءت طريقة لستر وكشفت للجراحين كيفية شفاء الجروح بالقصد الاول (اي بغير تقيح) وقد كانت هذه الكيفية موضوعَ البحث والنظر مدة قرون كثيرة والآن نرى كل يوم نتائج هذا الكشف بقلوب مفعمة سروراً و بفرح لم يفرحهُ اسلافنا . لم يستنبط لستر هذا الاستنباط البديع دفعةً واحدةً ولا اوجدهُ كلهُ من العدم ولكن كانت السبل اليهِ قد تمهَّدت باكتشاف كثير من الحقائق العلمية الفسيولوجية والكيماوية والنباتية والعلاجية وكان شلز وشوان وهلمهلتز وشرودر ودوش وباستور في طليعتهم قد اثبتوا ان الاختمار والفساد مسببان عن الجراثيم الحية

لم ينتبه العلماء الى هذا الامر الانتباه الواجب ولكن لستر ابان ان فائدتهُ لعلم الجراحة تفوق الوصف وشرع في معالجة الجروح في مستشفى غلاسكوسنة ١٨٦٥ على الاسلوب الذي لقَّبهُ بمضاد الفساد لانهُ قصد بهِ ان يمنع كل فساد يحلُّ في الاعضاء المجروحة بانيًا اقوالهُ وافعالهُ على الحقائق العلمية المثبتة . فقال في نفسهِ ان الفساد ليس من الهواء نفسهِ بل من الجراثيم

الحية المنتشرة حولنا فهي سبب الالتهاب والصديد . ولم يقتصر غرضهُ على منع الجراثيم الحية عن دخول الجروح بل حاول قتلها اذا كانت فيها بمزيلات العدوى ومنع نموها ثانيةً واختار الحامض الكربوليك (الفنيك) لازالة العدوى . ولا يخفى ان الجراحين استعملوا انواعاً مختلفة من مزيلات العدوى قبل ايامهِ وفي جملتها الحامض الكربوليك نفسهُ ولكنَّ لستر هو اول من استعمل مضادَّات الفساد استعمالاً صناعياً قانونياً . وكان اصابهُ في اول الامر ناقصاً من وجوه كثيرة شأن كل اسلوب جديد . واعترض عليهِ كثيرون من وجوه شتَّى ولكنهُ كان واثقاً بصحة مبدإهِ فجعل يصلحهُ رويداً رويداً وغرضهُ الذي يرمي اليهِ منع الفساد من دخول الجروح بازالتهِ عن كل شيء يتصل بها ولاسيما ايدي الجرَّاح ومساعديهِ وآلاتهم وادواتهم وتنظيف الجروح نفسها من الفساد الذي حلَّ بها

ثم فصَّل الكاتب اساليب لستر كلها ممَّا هو مبسوط في كتب الجراحة فلا داعي لذكرهِ هنا . وقال في الختام « لا بدَّ من ان السر جوزف لستر يسرُّ مسروراً عظيماً حينما يلتفت ويرى الاعمال التي عملها في حياتهِ ويجد انهُ نال ما تمنَّى . واذا قابلنا علم الجراحة كما كان منذ ثلاثين سنة قبلما غيَّرهُ بما صار اليهِ الآن دهشنا من هذا التغيير العظيم . وقد يتعذَّر علينا تذكُّر الايام الماضية ولكن الذي يعرف تلك الايام بالاختبار لا يستطيع الاَّ ان يعترف بان لستر كان نعمة عظيمة من نعَم الله على نوع الانسان ويجاهر بذلك عن علم اكيد وبهجة فائقة . قبل استعمال طريقة لستر لم يكن الجرَّاح يثق بشفاء الجروح وكانت مساوئ المستشفيات تفوق الوصف وكان الموت يخطف الالوف بواسطة العدوى الجراحية والآن صرنا نستطيع ان نشفي اشد الآفات ونعمل اصعب العمليات الجراحية فتشفى من غير التهاب ولا صديد ولا حمى . وقد صار لنا الثقة التامة بصناعتنا وصار المرضى يثقون بنا لانهم يعلمون اننا صرنا نشفي الجروح التي نجرحهم بها . وصار الجراحون يفتخرون باعمالهم في كل الاقطار . وقد تخالف الاطباء في كل البلدان على مقاومة الادواء وتخفيف الآلام . ونحن الالمانيين نعترف — وليس في نفوسنا شيء من الغيرة — ان شمس علم الجراحة الحديث اشرقت اولاً في البلاد الانكليزية وفي شخص السر جوزف لستر . الجراحة في الاصل صناعة ولكنها صارت الآن علماً وارتقت في العشرين سنة الاخيرة ارتقاء لامثيل لهُ والفضل في ذلك للستر . ولم تقتصر على ظاهر الجسم بل تناولت كل عضو من اعضائهِ والفضل في ذلك لهُ ايضاً . واذا كان في هذا العالم خلود فهو الرجل الخالد الاسم لان الجراحة لا تذكر حتى انقضاء الدهر الاَّ ويذكر فيها اسمهُ